

لماذا نسيتني؟

قصصهم

عبدلغزاري

يزيد من ضربات قلبه ويملا صدره بالوحشة والرعب .. وكانت القبور تنتشر حوله في كل مكان ، كلما تلفت وجدها صامتة مستسلمة ، غير انها تبدو كما لو كانت تعتمد هذا الصمت والاستسلام ، بل ربما كانت ترتبص به او تدبر شيئا لن تلبث ان تنفجر فجأة لتهدده به . ومع انه رجل عاش حياته للعلم ونذرنا لمحاربة الاوهام والخرافات ، فقد كان هناك شيء يقبض على عنقه او صدره ويكاد يخنقه . شيء لم يستطع ان ينسين ان كان خوفا أو خجلا أو توبة من ذنب قديم او رهبة أمام المجهول الساكن المنتشر كالوحش غير المنظور في كل ذرات الهواء الذي يتنفسه حوله .. ولا يدري ايضا لماذا ففرت الى ذهنه صورة حيوانات بدائية متقرضة كان قد رأى ظهورها في مناسبة لا يذكرها .. ربما في احد الافلام أو في كتاب علمي قرأه منذ سنوات .

كان التعب يختر أعضاه . واجتمعت حرارة الحو اللافحة مع عرق مزوج بتراب السفر .. داح يتصبب من جبينه وسالفيه ويدخل الى فمه قطرات مرة مفرزة .. وكاد يندم على انه نزل من العربية على الطريق الزراعي ولم يكمل سفره الى البلدة .. فقد كان في استطاعته أن يزور أخته الكبرى وأخاه المقيم في بيت العائلة .. ثم يعود الى زيارة أبويه في الصباح .. ولكنه نفى هذه الوسواس عن نفسه بسرعة .. قائلا انها لا تليق بعالم مثله .. وماذا ترك اذن للجهلة والفلاحين .. بل ماذا ترك للمعزة والاطفال ؟ ها هي البلد تترأى له من بعيد .. جدارا واهيا أسود من الطين .. ينثف الدخان والقباب من فمه كتنين يموت .. والبيوت الصغيرة ككتل من السحاب الأسود تحتمي من بعضها البعض خائفة من لفق الشمس ومن مصيرها المحتوم .. وبعض الكلاب تموي من بعيد كأنها تحتر من هذا المصير ، وتعلن سخطها نيابة عن الفلاحين الصامتين ..

أسند رأسه الى جدار القبر .. وتراكم عليه نعب النهار وكأبة الموت وركود الهواء ولفق الحر وطين الدباب ونعيق الغربان فاستسلم لذكرياته .. وخيل اليه انه يسمع صوتا يناديه :
- حسني ؟

كان صوتا هادئا فيه بحة رنت في اذنيه رنيناً مألوفاً وغريباً ، بدا له كيد دافئة تمسح على رأسه وجبينه : حسني .. حسني ..
أجاب في لهفة : أمي ؟؟

قال الصوت العميق : غبت يا ابني .. طالت غيبتك ..
قال حسني غير مصدق : أهذا صوتك حقا ؟
أجاب الصوت معاتباً : نسيت أمك يا حبيبي ؟

ارتعشت يد الخفير المجوز لحظة قبل أن تضع المفتاح الاسود الفليظ في ثقب الباب . ومال برأسه الصغير الى الامام ليتطلع فسي وجه الزائر الغريب ، ثم دفع باب المدفن الصفيحي فصر صريراً مخيفاً كاد يغطي على الصوت الرقيق الذي يسأله : ألا تعرفني يا عم عوض ؟ قال الرجل وهو يدعوه ان يتفضل بالدخول ، ويمر بعينيه الكليتين من الوجه الابيض الذي لا يذكره : لا مؤاخذة يا سيدنا الافندي .. العتب على النظر ..

ضحك الزائر قائلاً : هل نسيت حسني يا عم الشيخ ؟
مر الشيخ عوض بيده المعروقة على وجهه المتجهم كأنه يحاول ان يتذكر او يحتج احتجاجاً اخرس على الضحكة التي رنت في غير مكانها ويجبرها على التراجع امام هيبه الموت ووحشة القبور : حسني بيه ؟ ابن الحاج جابر ؟ .. والله سلامات .. يا مرحبا بأهل مصر .. الله يرحم والدك ..

قال الاستاذ حسني بعد ان خطا خطوتين في داخل المدفن وطالعتة ثلاثة قبور تداخلت في بعضها البعض فبدت كظهور موجات غطساها الزيد الابيض : الله يرحم الجميع .

نفص عم عوض التراب بجلبابه من مرتفع صغير أعد للزائرين ، ودعا للجلوس وهو يتمتم بالفاتحة ، ثم اراد ان يستأذن في الانصراف معتذراً بانمام حراسته حين سأل الاستاذ حسني في خجل :
- لا مؤاخذة يا عم عوض .. من عشر سنين وأنا غائب عن البلد .. المرحومة أمي مدفونة هنا .. قبل الحاج بسنين .. هل تعرف ... قال عم عوض وهو يرفع يديه ويعيد تلاوة الفاتحة : استغفر الله .. طبعاً يا ابني .. هنا يا سيدنا البيه .. الله يرحمها ويحسن اليها رأسها تحت الشاهد تمام ..

أقبل حسني على القبر الاوسط في خشوع شجع الخفير على الاعتذار مرة اخرى والانصراف الى نوبة حراسته . وحين وجد نفسه وحيداً بعد ان اغلق الباب عليه لم يدر على التحديد ماذا يفعل .

مد يده الى القبر وأخذ يمسح بها عليه .. تمنى لو تسعفه الدموع او يشهق بالبكاء كطفل وحيد تعيس . غير انه كان يعلم ان دمعه بعيدة ، وانها خذلته في موافق كثيرة لا يستعصي فيها البكاء على أعنى الرجال .. وأخذ يفش عن آية يحفظها من أيام المدرسة ، فلم تطاوعه الا الفاتحة التي أخذ يرددتها دون تفكير .. واحس بوجهه يلتهب بالخجل ، فأخذ يبلع ريقه كالتهم الذي وقف الكلام في حلقه امام المحكمة . كان الوقت بعد العصر بقليل . والهدوء الساكن حوله

وضع أذنه على الجدار ، ثم رفع صوته محتجا : نسيك ؟ كيف
أتسلك يا حبيبي ؟
عاد الصوت يقول في أسف لم يخف عليه : لو كنت تحبني حقاً ..
فلماذا نسيك ؟

تمثل له الوجه العجوز كما رآه آخر مرة .. كانت الابتسامة
الطيبة الساحرة تحاول أن تفسح لها مكانا بين التجاعيد الزدحمسة
على طرف الفم وتحت الخدين البارزين . ولم تنضح له العينان تماما
وان راح يبحث عنهما تحت المنديل الأسود الذي يشد الجبين ويندلى
طرفه فوق الأذن الدقيقة البيضاء . تأمل الوجه الصغير المستطيل
وغضب لأنه لم يتبين كل ملامحه وقال :

ـ لا تقولي نسيك .. انما المشاغل والأعمال .
قالت في حنان : هل تعمل الآن يا حبيبي ؟ عندما تركت كنت
في البكالوريا .. كان نفسي أفرح بك وأوزع الشربات ..
ضحك وقال : البكالوريا ؟ هوه .. هوه .. أنا سافرت وعتشت
في القرية سنين .

سمعتها تضرب صدرها بيدها : عند الخواجات ؟ ربنا يحفظك
يا ابني ..
ضحك من كلامها .. تعجب في نفسه من جهلها . لكنسه
ابتسم وقال :

ـ ياما سافرت ورجعت ..
قالت داعية : تسافر وترجع بالسلامة يا ابني ..
أراد أن يقول انه عبر المحيطات وركب الطائرات والقطارات ثم
عاد إليها . تذكر أن الأرض كروية وأن الانسان يعود دائما الى النقطة
التي بدأ منها . حاول أن يجد عبارة تبين انه لم ينسها ، وانسه
كالطفل الضائع ، مهما هرب وتاه في بلاد الله لا بد يوما أن يرجع
الى صدر أمه .

وأخرجه الصوت من حيرته حين سمعه يسأل : وتوظفت
يا حبيبي ؟
ظل يضحك حتى فاجاه الخجل و رهبة المكان فقال : موظيف ؟
قولي مدير .. رئيس ..

عادت تسأل : بركة يا ابني .. وشفلك صعب ؟
تهيا للشرح الطويل . رفع ذراعه وأخذ يشير باصبعه ويقول :
صعب ؟ كله الا التخطيط يا أمي . كله الا التخطيط .

انطفئ الوجه الحنون عليه في اشفاق .. غابت منه الابتسامة
وحل محلها حزن أبدي مظلم كالذي يكسو وجوه الفلاحين .
سألت وهي تلفظ الحروف في حذر شديد : تخطيط ؟
وجد أن المسألة تحتاج الى شرح طويل . رفع ذراعه الى أعلى
وبدا يشير بسبابته كأنه يوضح رسوما على لوح أمامه : التخطيط
يا أمي هو الذي تخصصت فيه .. طبعا حصلت على أعلى الشهادات .
قاطمته قائلة : ربنا قادر يا ابني يطيك ..

استمر يقول : التخطيط يا أمي هو سياسة اقتصادية لتحقيق
أهداف معينة . هو رسم صورة للمجتمع الجديد .. المجتمع الذي
نحلم به . هو الاطار المادي للمثل والأمال التي تسيطر علينا .. أنا
أرسم هذه الصورة ، مع زملائي طبعا ، وكلهم دكاترة مثلي ..
هتفت في فرح : يعني انت دكتور يا حبيبي ؟ يعني انت
دكتور ؟

قال في استنكار : أوه .. طبعا . طبعا يا أمي . نرجع
للموضوع . مجتمعنا متخلف راكد .. شبه ميت . يسود التأخر جميع
مرافقه الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية . يعيش في
الظلام بعيدا عن تيارات الحضارة والعلم والمدنية والحرية . يحيا

غريبا في هذا الكوكب . ينظر الى العالم كاهل الكهف أو كالتفلسف
الهابط من كوكب آخر . سبعون في المائة من السكان اميون
عاجزون ، مرضى بالبلهارسيا والدوسنطاريا والقدرية والفقر والصبير .
مستوى دخل الفرد لا يصل الى حد الكفاف ..
قاطمته في صبر نافذ : كلامك يا ابني ..

أشار اليها أن تسكت وتستترد بقول : نريد أن نغير الهيكل
الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع . نريد أن نبني بناء جديدا مكان
البنيان المتداعي القديم . نريد أن ننهض به الى مستوى لائق من
الحضارة . حالتنا سيئة يا أمي .. حالتنا سيئة . ٧٠ الى ٩٠ في
المائة ما زالوا يعيشون على الزراعة . ينفقون كل دخلهم على الغذاء
والضروريات . لا يعرفون الادخار . تصوري ان مستوى دخل الفرد
منخفض عن مستوى دخله في الهند .

قالت الام وهي تبسم فتكشف عن فم بلا اسنان : الهند بعيدة
يا حبيبي . مالنا ومال الهند ؟

أجاب مندفا غاضبا : يعني نحن في الحضيض . ما زلنا في
الحضيض رغم التمدد والعرق والمجهود . بيننا وبين العالم المتحضر
هوة سحيقة . نرغب الحمار وهو يركب الصاروخ . نزرع بالفاس
والمحراث وهو يستخدم الطائرة والجرار . نعيش في عصر الساقية
وهو يعيش في عصر المكنة .. لا بل كما يقول العلماء في عصر ميكنة
المكنة ..

قالت جزمة : المكن خطر يا ابني .. ربنا يتجيك من الاخطار ،
زاد صوته حدة وراح يشير بيده : نريد ان نحول مجتمعنا الى
مجتمع صناعي .. مجتمع متقدم . نريد ان ياتي اليوم الذي يترك
فيه الفلاح الفاس ، بكسر المحراث ، يقتل حماره بالرصاص ..
سألت خائفة : حرام يا ابني ..

رفع صوته اكثر وقال : بل يقتل كل الحمير .. كل هذه
المخلوقات القبيحة الكسولة التي تنضح عليه .

قالت تذكره بالماضي : ابوك كان يحبه يا ابني .. حماره الابيض
بعلمة سوداء على راسه .. ما أحلاه وهو يسرح به الى الغيط ..
قال ساخطا : لو كان أبي حيا لاجبرته ان يقتل الحمار ..
سألته مشفقة : وماذا يفعل من غير يا ابني ؟

قال : يركب هو وكل الفلاحين الجرار ..
سألت : الاتومبيل ؟ كل الفلاحين على اتومبيلات .. ومن
يزرع الارض يا ابني ويرونها ويعزقها ويلب محصولها ؟
قال مؤكدا كلامه : بالمكن يا أمي .. قلت لك بالمكن ..

قالت في لهجة يائسة : ربنا قادر يا ابني .. والبهايم ممن
يحبها يا حبيبي ؟ .. من يرعاها ؟

قال منطلما الى القرية الهاجعة كجثة تنزف طينا أسود : البهايم
ستعيش في حظائر .. تحلب بالمكن وتاكل بالمكن .. المعدات البدائية
ستزول وتحل محلها آلات جديدة نظيفة .. ألم أقل لك لا بد ان ندخل
عصر الصناعة .. لا بد ان نسابق الزمن .. الزمن الذي يجري
كالارنب ونحن وراءه كالسلفحة ؟ .. انظري .. هؤلاء الفلاحين الذين
يجلسون في الشمس قانعين راضين بالقدر ..

قاطمته وكأنها تخدره : المقدر لازم يكون يا ابني .. وكل حي
ونصيبه ..

فهمت وهو يشوح بكلتا يديه : هذه هي القدرية .. نريد ان
نقضي عليها .. لا بخت ولا نصيب بعد الآن .. الانسان هو سيد
القدر .. هو صانع الحياة .. هو المسيطر على الطبيعة .. هكذا
يقول العلم .. العلم .

كيف ينسى الإنسان أمه ؟ ..

بدأ وجهها الساطع يلتف في سحابة تبيض وتسود . اختفت
عينها الضيقتان الصافيتان . زادت الابتسامة الوديمة الساخرة
انساما حتى لم يبد له سوى فتحة كادت تملأ قلبه خوفا .. وجد
نفسه يقف ويتقدم منها ويؤكد كلامه بيديه وخطبات وجهه وأطرافه
وانتفاضة جسده : أقسم لك اننا سنعمل .. أن لم يعمل هذا الجيل
فلا بد أن يعمل الجيل الذي بعدنا .. والجيل الذي بعده ..

بدت الابتسامة كهلال نحيل يضيء وحيدا في السماء الصافية ..
خيل إليه أن الشفتين تتحركان في همس يرن مع ذلك رينا واضحا
في سمعه : ان كنت تحبني حقا .. فلا تنسني .
بعدت الابتسامة .. أضادت ثم شحبت ثم انتفضت قبل أن
تتلاشى .. صرخ حسني بملء صوته :

- أنساك .. لا يمكن أبدا .. أنت أمي .. أمنا . لا بد أن نعيش
معك .. لك .. فيك .. لا بد أن نبني البيوت الصحية والمدارس
والحدائق والمسارح .. لا بد أن نعمل .. نعمل .. نعمل ..
شعر بجبل ثقيل يتمايل ويتحرك ويهتز ..
انزاح الجيل عن صدره ورأسه وانزاح ظله الأسود عن عينيه .
استمر شيء يهزه ويهزه .. فتح عينيه وقفز مدفورا . كان لا يزال
يصرخ بصوت مجروح ومختنق ينبعث من حلق مر ملتهب : العمل ..
العمل .. العمل .. انتبه الى عم عوض الذي أخذ وجهه الصغير
المصفر ينتفخ وينكمش امامه ..
هز رأسه لحظات قبل أن يفيق تماما ويقول : لا مؤاخنة يا عم
عوض ..

قال عم عوض ضاحكا :

- معثور يا ابني من التعب .. الشمس راحت والمغرب أذن
وحضرتك .. يعني لو نسيته كنت لا مؤاخنة ...
تذكر وهنت : لا .. لا ! الا النسيان ..

ابتسم .. وضع ذراعه في ذراع عم عوض الذي أغلق باب المدفن
الصفحي فصر صيره الخيف .. وسارا معا على اقصر طريق يؤدي
الى البلدة التي بدت في ظل السحب الداكنة المحمرة الاطراف مثل
جدار واه من الطين يحاول التشبث بالارض الطرية التي تن تحتها
وتهدد بالسقوط ..

عبد الغفار مكاوي

القاهرة

مكتبة النوري

دمشق - تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .

قالت مستسلمة : بحره واسع يا ابني .. وربنا يزيدك من
نعيمه ..

استطرد يقول كأنه يخطب : والعلم يقول لا بد من ثورة في
الريف .. لا بد من تحطيم المجتمع التقليدي .. لا بد من القضاء على
القدرية والقناعة بالبخث والنصيب ..
قالت تحاول أن تهديء من حماسه : القناعة يا ابني كنز ..

اجابها كالعاصفة : غلط .. القناعة هي سر المصائب .. القناعة
علمت الفلاح أن يرضى بالقليل .. أن يعيش هو وأولاده كالحمير
والجاموس .. تغذية سيئة (نسبة ضئيلة من السرعات الحرارية) .
حالة صحية سيئة (طبيب لكل ٣٦٠٠ انسان تصوري !) . أمية
وجهل منتشر (٧٥ في المائة ، تماما كما كانت على أيامك) . خزعبلات
وأوهام موروثة يسهونها تقاليد . تعصب للاسرة وللارض . وبلغة العلم
جهود أفقي .

سالت : ايه يا حبيبي ؟

قال متجاهلا سؤالها : جماهير مفرطة في الفقر ، وافراد مفرطون
في الغنى .

قالت تنبهه : أمر الله يا ابني .
زجر ساخطا : بالعكس .. ناس ترضى بالبؤس والكدر ، ترثهما
وتورثهما للأولاد والاحفاد .. هذا بلغة العلم هو الجمود الراسي .
مصممت بشفتيها فهتفت : قلت لك جهود راسي !
هزت رأسها أسفة : ربنا يعينك يا ابني وينصر المسلمين .

عاد ينظر الى القرية المستسلمة تحت نجوم لا ترحم : بلادنا
يا أمي قرية .. قرية كبيرة واحدة . قرية منسية .. متخلفة ..
أمية .. مريضة .. مفلقة .. بدائية . القرية هي أم المشاكل .
لا بد أن نحياها ، ننفخ فيها نور العلم .. نبنيها من جديد .. بيوت
عصرية بالماء والنور والجاري .. بينها شوارع نظيفة .. فيها بساتين
وساحات .. مسارح وملعب للأطفال . مكتبات . كل الفلاحين لا بد
أن يخرجوا من تحت الارض .. يحسوا بالدنيا .. يأكلوا ويشربوا
ويرقصوا ويسمعوا الموسيقى ويفرحوا .. لا بد أن يفرحوا يا أمي .
مرة واحدة من أنفسهم .. ويلبسوا البتل وال ..

ضحكت حتى كاد يعاتبها وقالت : يلبسوا بتل ؟ .. ربنا قادر
على كل شيء ..

قال وهو ينفخ الهواء مع الفيظ المكتوم في صدره : طبعاً حقهم ..
ويقروا الكتب ويعرفوا اخبار الدنيا ويتمتعوا بالثقافة والحضارة ..
يقولوا نعم ولا وقت للزوم .. الديمقراطية يا أمي ..
سالت : ماذا يا ابني ؟

استمر في اندفاعه : والاشتراكية .. ومجتمع الكفاية .. مجتمع
العدالة ... مجتمع ..

اشفقت عليه من هذا الهياج .. صعب عليها أن يفور الدم في
وجهه وتنتفخ عروقه ويسيل العرق أنهارا على صدره دون أن يشعر ..
أخذت تنظر اليه صامتة .

فقال يطمئنها : لن ننسى الريف يا أمي .. لن ننساه بعد
الآن .. سنزحف عليه كالجيوش الهائلة لنمدنه ونعلمه ونشفيه ونعالج
رمده القديم . سنعمل .. سنعمل ..

تردد صوتها الخافت في أذنيه : العمل عمل الله يا حبيبي ..
لا تنس قراءة الفاتحة على روحي .

بدا له أنها تعاود التهمة التي تصور انه دفعها عن نفسه ..
قال وفي صوته احتجاج لم يستطع أن يغطي على النهم : أنسى ؟